الإسلام وتحليم البر

لحضرة الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام
الأستاذ بكلية الآداب

البر الصدق والخير، وبر الناس الاحسان إليهم، وبر الله تعالى طاعته، وإنما نريد البر الذى هو الإحسان إلى الناس، ونخص من هذا الاحسان الاحسان إلى الفقراء والضعفاء والمرضى بسد خلتهم، وشد أزرهم وإبراء مرضهم؛ ورعاية اليتامى ومواساة المحزونين ونحو هذا.

والإسلام يدعو الى البر كله. فقد أمر الاسلام بالاحسان العام الشامل ثم وكد الأمر بالاحسان إلى ضروب من الناس هم أحوج إلى الإحسان والمواساة والبر. ففى آية البر يعدد أعمال البررة فيقول "وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ" والمراد بإيتاء المال فى الرقاب بذله فى تحرير العبيد لترد اليهم كرامة الانسان ويزول عنهم ذل العبودية. وقال فى آية أخرى. "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ." وقرن القرآن الصلاة بالزكاة، وجعل من أول أعمال المسلم الانفاق والبر فقال "الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ".

كما جعل أول صفات المكذب بالاسلام القسوة على اليتيم والإعراض عن إطعام المسكين "أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ، وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ" وقال: "كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ." ولم يجعل الاختلاف فى الدين حائلا دون البر، قال: "لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ".

حث الاسلام على البر بكل ضعيف ومحتاج، وحث على بذل المال طوعا لإعانة الفقراء على العيش، وأشرب القلوب الرحمة على المساكين، ولكنه لم يترك الأمر إلى اختيار الناس إن شاءوا أعطوا وإن شاءوا منعوا، ولم يرد البر إلى الأخلاق المختلفة، والطباع المتباينة، والاحوال التى تتداول الانسان بين الرضا والسخط، والقسوة واللين.

بشر المتصدقين وأنذر المانعين، وخاطب الوجدان ليرققه على المحتاجين ويعطفه على المساكين، ولكنه لم يترك الأمر بددا لانظام له، فشرع الزكاة وجعلها حقا معلوما للفقير.

فرض الزكاة فى المال والزرع والحيوان. ولم يدع شيئا يملكه الغنى إلا أن يجعل فيه حقا للفقراء مقسوما. فالمال المدخر والمال المتداول فى التجارة والزرع والشجر والإبل والبقر والغنم وكل الحيوان المستأنس السائم، وما يستخرج من الأرض من معادن أو يلقى

فى حناياها من كنوز — فى كل أولئك حق معلوم للفقراء لا مناص للمالكين من تأديته ، وكذلك أمر بصدقة معينة فى عيد الفطر ، وأمر بإطعام الفقراء من الأضاحى ، ومن الهدى فى موسم الحج ، وجعل إطعام الفقير كفارة اليمين و إفطار رمضان ، ومخالفة بعض السنن فى الحج ، وجعل عتق للعبيد كفارة للأيمان والقتل وأمور أخرى . فانظر كيف وجه إحسان المحسن إلى البر بالفقراء ، وجعل إساءة المسىء وسيلة الى البر بالفقراء كذلك .

وأراد المسلمون أن ينال الفقراء كلهم هذا البر ، فمنع الفقهاء أن تنقل الزكاة والصدقة من بلدة إلى أخرى إلا أن يكون المنقول اليه أحوج أو أقرب للمعطى. وقد قال الفقهاء : يكره أن يعطى الفقير من الصدقات ما يغنيه ، يريدون أن يواسى بين الفقراء فى الصدقات ، لا يؤثر بعضهم على بعض بل يسوى بينهم على قدر الطاعة .

و بيّن القرآن أهل الصدقات لتنال كل طائفة نصيبها بالحق فقال " إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . "

سنّ الاسلام فى البر بالفقير والضعيف ، سننا كثيرة ، واحتاط لها بوسائل عدة ، وعنى بالنظام فى جمع الصدقات ، و إعطائها . والاسلام الذى شرع المساواة بين البشر أجمعين يسوى بين آخذى الزكاة ومن يناله البر بشرائع الاحسان التى شرعها ، والاسلام الذى يقيم شرائعه كلها على النظام يؤيد النظام فى البر وهو أول سننه .

قصد الاسلام إلى البر بالفقراء بأن يكفل لهم عيشة راضية مطمئنة لا تتفاوت بالنيل والحرمان بين يوم وآخر ، ولا تسيرها المصادفات والفجاءات ، وقصد الى التسوية بين الفقراء والمحتاجين فيما يبرون به ، وهذا القصد لا يُبلغ إلا بسنن محكمة ونظم مستقيمة تفى بهذه المقاصد.

فكل نظام يكفل للمحتاجين كفايتهم على شرعة معروفة ، و يبصر المحتاج بما يناله فى يومه وغده ، و يكفل للمرضى مداواتهم كلما ألمت بهم العلل ، وللايتامى تربيتهم ورعايتهم. كل نظام يكفل هذه يحقق مقاصد الاسلام ، و يمكن المسلمين من الائتمار بأوامر دينهم على أنفع الوجوه .

وقد بينت شرائع الاسلام للمسلمين ، وأوحت اليهم منذ عصورهم الأولى أن ينظموا البر ، فشرعوا يقفون الأرض على الصدقات منذ عهد عمر رضى الله عنه ، وتوالوا فى هذا الخير ، وكانت الأوقاف فى العصور كلها لكفالة ضرب من البر ، و إدامة وجه من وجوه الصدقات . وقد افتن المسلمون فى هذا حتى نال برهم الحيوان ، فوقفوا لإطعامه الأوقاف . ومن أمثلة هذا أن نور الدين محمود وقف أرضا فى دمشق لتكون مأوى للحيوان الهرم يرعى فيها حتى يموت .

وبنوا دور الشفاء والمارستانات والتكايا . ورصدوا فى بيوت المال أو بيوت القضاة ما يغاث به الملهوف ، ويعان به المسافر ، ويحرر به الأرقاء ، فعلوا هذا منذ القرن الأول الهجرى .

أعطى الوليد بن عبد الملك المجذمين وقال : لا تسألوا الناس ، وجعل لكل مُقعد خادما ، ولكل ضرير قائدا ، وكثرت من بعدُ المستشفيات والملاجئ والتكايا فى أرجاء البلاد الاسلامية لإيواء المرضى والفقراء والسائحين والمحتاجين ، فما يمر سائح ببلد إلا وجد مأوى وطعاما فى هذه الدور أو فى بيوت الناس .

وقد شاع هذا فى أرجاء البلاد الاسلامية حتى نشأت جماعات الفتوة . وهى جماعات متنافسة فى البر والمواساة وإعانة الضعيف والمريض وإكرام الضيف .

وقد تنافس المسلمون ملوكهم وأغنياؤهم فى التصدق على الفقراء والبر بالمعوزين والضعفاء وتنظيم هذا جهد الطاعة ، وأضرب مثلا ما ذكره ابن بطوطة عن ملك تونس أبى الحسن بن عبد الحق :

" اخترع مولانا أيده الله فى الكرم والصدقات أمورا لم تخطر فى الأوهام ولا اهتدت إليها السلاطين . فمنها إجراء الصدقات على المساكين بكل بلد من بلاده على الدوام ، ومنها تعيين الصدقة الوافرة للمسجونين فى جميع البلاد أيضا ، ومنها كون تلك الصدقات خبزا مخبوزا متيسرا للانتفاع به ، ومنها كسوة المساكين والضعفاء والعجائز والمشايخ والملازمين للمساجد بجميع بلاده ، ومنها تعيين الضحايا لهؤلاء الأصناف فى عيد الأضحى ، ومنها التصدق بما يجتمع فى مجابى أبواب بلاده يوم سبعة وعشرين من رمضان إكراما لذلك اليوم الكريم وقيامه بحقه ، ومنها إطعام الناس فى جميع البلاد وليلة المولد الكريم واجتماعهم لإقامة رسمه ، ومنها اعذار اليتامى من الصبيان وكسوتهم يوم عاشوراء ، ومنها صدقته على الزمنى والضعفاء بأزواج الخرث يقيمون بها أودهم ، ومنها صدقته على المساكين بحضرته بالطنافس الوثيرة والقطائف الجياد يفترشونها عند رقادهم ، وتلك مكرمة لا يعلم لها نظير ، ومنها بناء المارستانات بكل بلد من بلاده وتعيين الأوقاف الكثيرة لمؤن المرضى ، وتعيين أطباء لمعالجتهم والتصرف فى طبهم إلى غير ذلك مما أبدع فيه من أنواع المكارم . وضروب المآثر ، كافأ الله أياديه وشكر نعمه "

وأقول ليس هذا السلطان فيما فعل بدعا من سلاطين الاسلام ، ولكن الكاتب أراد أن يبالغ فى مدحه فخصه بهذه المآثر .

وذكر ابن بطوطة كثيرا مما رآه من جماعات الفتوة والأخوة فى بلاد المسلمين قال عن مدينة قيسارية :

" ونزلنا من هـذه المدينة بزاوية الفتى الأخى أمير على ، وهو أمير كبير من كبار الأخية بهذه البلاد ، وله طائفة تتبعه من وجوه المدينة وكبرائها ، وزاويته من أحسن الزوايا فرشا وقناديل وطعاما كثيرا وإتقانا ، والكبراء من أصحابه وغيرهم يجتمعون كل ليلة عنده ويفعلون فى اكرام الوارد أضعاف ما يفعله سواهم . ومن عوائد هـذه البلاد أنه ما كان منها ليس به سلطان فالأخى هو الحاكم به ، وهو يركب الوارد ويكسوه ويحسن إليه على قدره "

وقال فى الحديث عن مدينة لاذق فى الأناضول :

" وعند دخولنا لهذه المدينة مررنا بسوق لها ، فنزل إلينا رجال من حوانيتهم وأخذوا باعنة حيلنا ونازعهم فى ذلك رجال آخرون وطال بينهم النزاع حتى سل بعضهم السكاكين على بعض ونحن لا نعلم ما يقولون لخفضا منهم وظننا أنهم الحرميان الذين يقطعون الطرق وأن تلك مدينتهم ، وحسبنا أنهم يريدون نهبنا ثم بعث لنا الله رجلا حاجا يعرف اللسان العربى فسألته عن مرادهم منا ، فقال إنهم من الفتيان وأن الذين سبقوا إلينا أولا هم أصحاب الفتى أخى سنان والآخرون أصحاب الفتى أخى طومان وكل طائفة ترغب أن يكون نزولكم عندهم فعجبنا من كرم نفوسهم ثم وقع بينهم الصلح على المقارعة فمن كانت قرعته نزلنا عندهم "

فانظروا كيف صار البر سنة فى الجماعة الإسلامية ، وخلقا فى الملوك والكبراء ، وتنافسا بين الناس كلهم ، والقوانين لا تجدى حتى تجد من أخلاق الناس عونا ومن نفوسهم كفيلا بالطاعة "

ولا يزال الإسلام يدعو إلى أن ينظم البر تنظيما يقرب ما أراده من الإحسان الشامل فكلما سرنا فى هذا التنظيم خطوة كنا أقرب إلى مقاصد الإسلام وأدنى إلى مرضاة الله ؛

عبد الوهاب عزام